الإيقاع الصوتي الإيحائي في سياق النص القرآني

الدكتورة جنان محمد مهدي*

المقدّمة

اقتضت ديمومة الخطاب القرآني مناسبته لكل العصور ، لذا كان منهج التكامل القرآني لنصوص وآياته القرآن الكريم ضرورة مفروضة للتقصي والإدراك الواعيين لاستجلاء مكونات النصوص ، بوصف ـ الخطاب القرآني ـ خطاباً عاماً للبشرية جمعاء ، وتبعاً لذلك اقتضى تطور الدراسات حوله أن يساير التنامي الحاصل في متطلبات العصر وتغيراته الثقافية خلال الأزمنة ويواكب النهضة الفكرية للعقل الإنساني الحديث .

فنصوص القرآن الكريم استثارت العقل البشري بوصفه معجزة الخالقﷻ إذ تفرد بسمات ميزته عن نصوص الشعر والنثر فكان نسيج وحده في بلاغة النظم والصياغة ، لذا وعلى وفق الدراسات الحديثة في منهج قراءة النص القرآني الحديث ، لا ينظر من زاوية معينة دون أخرى ، بل يفترض قراءات تحليلية لنصوصه واستنطاق لمكوناته وتنوعاً في المعاني والدلالات التي تشي بها المفردات القرآنية .

لذا فلغة الخطاب أو عمارة النص وهندسته التشكيلية تستند في الأساس إلى بنائه النصي المؤلف من مجموعة الأفكار والموضوعات والأساليب مختلفة الصياغة ، وهذه الأخيرة تمتلك دلالات إيحائية تعد الظلال الذي تلقيه ألفاظ النص وهي في واقع الحال خفية يظهرها سياق النص ومقامه الذي انتظم فيه الخطاب .

فثمة ألفاظ ترسم صورة النص لا بجرس أصواتها الذي تلقيه في الآذان فحسب بل بظلالها وإيحاءاتها الخاصة التي لا يلمحها ولا يلحظها إلا الحس البصير .

إنّ التآلف العجيب والمعجز للنص القرآني من حيث بنائه النصي والدلالي ليعكس صورة عن قدرة إعجازية لا يناظرها نص آخر في القدرة التصويرية والايحائية التي تمتعت بها ألفاظه ؛ ذلك لأنّ للألفاظ معاني ودلالات لا تلمس إلا بالنسج المتفرد في التعبير القادر على اطلاق تلك المعاني في فضاءات النص لتستطيع الايحاء المعبر عن الصور والمعاني الخفية له .

لذا جاء البحث في محاولة للكشف وإبراز جمالية النص القرآني وهندسته المعجزة وقوته التعبيرية والأدائية التي تمثل الجانب الإيقاعي الصوتي ، الذي كان له حضور مكثّف في البنية القرآنية التي تلونت في كل سورة ، ودراسة تستكنه الحركة الباطنة للإيقاع والإيحاء الذي تؤديه الألفاظ من خلال تساوق إيقاعاتها داخل سياق النص القرآني ، وما لذلك الإيقاع من دلالة إيحائية تنبئ عن دلالات ومعانٍ قد لا تعبر عنها اللفظة منفردة وحدها بجرسها وأصواتها إلا حين تكتسي حلة النسق السياقي للآية بل السورة كاملة أحياناً .

وسيكون مدار البحث عن الإيقاع من جانب اللغة وليس الأدب وإن كان المعروف أنه ألصق بجانب الأدب أكثر منه في جانب اللغة إلا أنه كان مغيبًا في الجانب الأخير.

الإيقاع والإيحاء

تنتظم اللغة المنطوقة في سلسلة متتابعة من الأساليب التعبيرية التي تكوّن الكلمة والمفردة أساسها البنائي لتنتهي تلك السلسلة في أبسط صورها بالصوت اللغوي ، الذي عُرِّف بأنّه : ((عرضٌ يخرج مع النَفَس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع اينما عرض له حرفاً ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها))⁽¹⁾ .

فوظيفة الصوت إذن توليد المعاني عبر تسلسل صوتي خاضع لقواعد معينة في التجاور والارتباط والموقع تبعاً للموقعية والنبر والتنغيم ؛ ذلك لأنّ الكلمات المنطوقة ((تتكون من أصوات متتابعة ينزلق كل تابع منها عن سابقه . وليست هذه الأصوات في الكلمة بنفس القوة وإنّما تتفاوت قوّة وضعفاً بحسب الموقع))⁽²⁾ .

وتتأتى تلك الوظيفة من مجموع تشكيل الأصوات داخل بنية لفظية ما تنسجم مع غيرها لتؤدي وظيفتها الدلالية ضمن بنية تركيبية سياقية تمنح النص دلالته المغيبة التي تولد بتآلف الأصوات فيما بينها.

ويوضح المخطط الآتي وظيفة الصوت الدلالية :

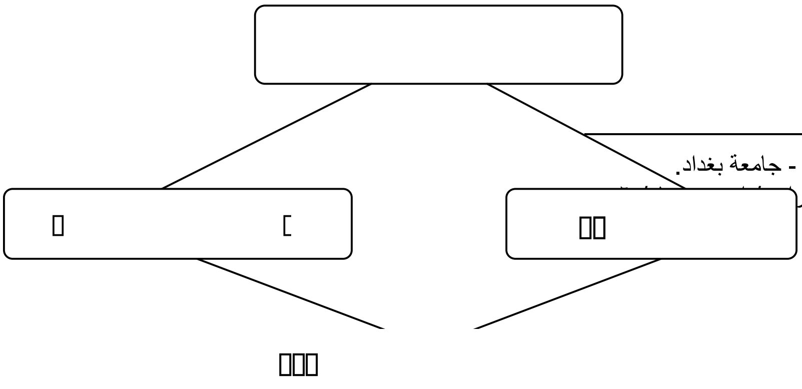

---

* كلية التربية للبنات - جامعة بغداد.

(1) سر صناعة الإعر

(2) مناهج البحث في

ويمكن أن تُعزى تلك الوظيفة الدلالية إلى غاية مهمة هي الرسالة التواصلية بين المرسل والمتلقي ، إذ تتبين بعملية التوصيل (communication) أهمية الصوت ودلالته في فهم اللغة الإشارية التي يطلقها المرسل إلى المرسل إليه(١) .

كما أن للأصوات والبنى الصوتية أهمية ((تسهم في تشكيل المعنى واضفاء الطابع الإيقاعي من تردد لصوت معين في موقع بعينه))(٢) وتجاوره مع غيره داخل سياق النص ، فتختلف دلالات البنى تبعاً لموقعية الأصوات وتكتسب بعداً دلالياً آخر يتناسب مع السياق النصي ، فلكل صوت ايحاءاته وقيمه الأسلوبية الموائمة للسياق ، فإيقاع الأصوات في سياق الفرح يغاير نظيره في سياق الحزن وكذا الوعد والوعيد (٣) .

وهذا يعني أنّ ثمة وشيجة قوية بين الأصوات والمدلولات فكل صوت يومئ ويشير إلى دلالة معينة، بمعنى آخر يجسد شكل المعنى ، فيصبح الصوت شفافاً مصوراً للمعنى ، وهو ما يعرف اليوم بـ(الانوماتوبيا Onomatopoea)(٤) ، فلو تأملنا قوله تعالى : ﴿ ***فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى*** ﴾(النازعات / ٣٤) لألفينا أنّ صوت (الطاء والميم) المجهورين الشديدين الواردين في لفظة (الطامة) الدالة على يوم القيامة يعبر عن هول ذلك اليوم ، وتشعرنا بحركة الطم المناسب لهول وقوة وشدة يوم القيامة ونكاد نشعر بدوّي وطنين(٥) فكانت الأصوات معبرة بايحاءاتها عن تلك الصورة المروعة وكان الإيقاع للفظة المرآة العاكسة لذلك الموقف .

يتبين لنا من كل ما تقدم أنّ الإيقاع ما يحصل من توقيعات صوتية تتجاوز الصوت وحده وقد تتجاوز الكلمة أحياناً ، إذ يكون من تآلف وتدفق الأصوات في بنية النصوص اللغوية ، وعوداً إلى الإيقاع القرآني نجد أنّه : ((تلك الظاهرة التي تقوم على التكرار المنتظم))(٦) ذلك التكرار الذي يتشكل ويتلون تبعاً لاختلاف النصوص ومضامينها ودلالاتها ، إذ إنّ ايقاعية النص القرآني مما امتاز به نسيجه وطُبع به بناه بخاصية أسلوبية اعجازية وتقنية فنية لا نظير لها ، كما أنّه : ((المظهر الخفي ذو الايحاءات القوية المبثوثة))(٧) عبر فونيمات وأجراس الأصوات .

إنّ جمالية الإيقاع لا تتأتى من الإيقاع الخارجي فقط ، وإنّما تتجاوز ذلك إلى الإيقاع الداخلي للنص الحامل لشحنات شعورية وتموجات نفسية لها ايحاءاتها العاكسة لجو السورة وسياقها النصي المعبر عن مضمون النص ودلالته . (٨)

ولا تدرك هذه الجمالية إلا لمن أوتي ذهنية وفكرًا متفتحًا مستوعبًا لإشارة لغة النص وايحاءاته التي تطلقها بنى الكلمات ، إذ تتميز المفردة القرآنية بسمة انفردت بها وهي التوالد والافضائية في الدلالات لا يلمحها إلا المتلقي الفطن فتغدو الفهم وسيلة لبناء المعنى وتوليده وانتاجه في الوقت ذاته ، أي أنّه يساهم بادراكه العقلي في إثراء النص وفهم ما وراء النص ومعانيه الثواني أو ظلاله .

ولعل هذا الأمر يثير تساؤلاً منطقياً عن ماهية ظلال المعنى للنصوص أو ما يسمى (Shades of meaning) كما يطلق عليه الغربيون وما يعرف لدى اللغويين بإيحاءات النص ، أو الدلالات الثواني ، ونقصد بايحائية النصوص تلك اللمحة الخفية التي لا يكشفها لنا النص إلا بالتأمل والإمعان ، فلو عدنا إلى ما ذكرته المعجمات العربية لألفيناها تذكر أنّ أصل الكلمة يشير إلى أنّ الوحي هو ((الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي))(٩) أو هو ((الإشارة السريعة))(١) ، وهذا يعني أنّ الكلمة أو النص كالموشور العاكس لألوان الطيف كل لون مختلف عن الآخر .

---

(١) ينظر : العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي (دراسة أسلوبية) ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ٣٩ .

(٣) ينظر : الصوت اللغوي ودلالته في القرآن الكريم / محمد فريد عبد الله ٢٢ .

(٤) ينظر : الجرس والإيقاع في التعبير القرآني / د. كاصد ياسر الزيدي (مستل) مجلة آداب الرافدين ـ كلية الآداب ـ جامعة الموصل ع٩ / ١٩٧٨م ، ٣٤٣ .

(٥) ينظر : التصوير الفني في القرآن /سيد قطب ٧٣.

(٦) مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية / شارف مزاري ٨١ ، نقلاً عن كتاب ((الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي المعاصر)) للدكتور عبد الحميد جيدا ، ص ٣٥٧.

(٧) مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية ١٣١ .

(٨) ينظر : المصدر نفسه ٨٦ .

(٩) لسان العرب / ابن منظور ١٥ / ٣٧٩ ..

فالإيحاء إذن نتاج لغوي يتجاوز الفهم الظاهري للكلمة أو إشارتها المعرفية، وهو ذو قيمة وأهمية كبيرة في الوصول إلى تصور كامل للمعنى ، بمعنى آخر أنّه الخيوط الخفية التي تربط نسيج النص وتقويه وتظهره بحلته وزينته الظاهرة .

ومن ثمّ يتطلب إدراك ايحائية النصوص خاصة القرآنية منها حساً وشعوراً فائقين يتجاوز البنية الظاهرية أو الفهم الظاهري إلى العلاقات التي يولدها سياق النص الناتج في تشابك الأصوات والمفردات مع التركيب ؛ ذلك لأنّ القوة التعبيرية والدلالية للفظة لا تظهر من معناها فقط بل من طبيعة تشكّلها الصوتي ، الذي يعكس صوراً إيقاعية متعددة ، تنسجم مع ايحاءاتها الظاهرة منها وغير الظاهرة .

مما يدل على استقلالية المفردة القرآنية بجرسها وإيقاعها وقدرتها المتفردة على تصوير لوحة كاملة يكون فيها اللون زاهياً أو شاحباً ، والظل فيها شفيفاً أو كثيفاً .

ولعلّ هذا الأمر يصدق في قوله تعالى : ﴿*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*﴾ [التكوير ١٧ ـ ١٨] ، إذ جسّم جرس السين الحركة وإيقاعها يوحي بحركة الليل وهو يعس في الظلام والخفاء ، كما يعس الماشي ويطوف في الليل تارة بيده وأخرى برجله ، وهو إيحاء بالجرس المؤدي للمعنى، . أمّا جرس السين في لفظة (تنفس) فإنّه يوحي بالرقة والسلاسة الملائمة لرقة الصبح ونداوته ، وحركة انفلات الصبح بعد ظلمة الليل (٢) .

فاللفظ إذن يستدعي الصورة الذهنية ، والصورة تنوب عن الشيء نفسه ، وهذه الحقيقة قررها النص القرآني منذ القدم ، وأكدها المحدثون الغربيون أمثال جان كوهن حين أشار إلى أنّ : القدرة الانفعالية للألفاظ ((هي نفسها قدرة الأشياء التي تشير إليها))(٣) . ونتيجة لذلك ((فقد أضحى من الضرورات الملحة لاسيما على صعيد الدراسات الأسلوبية والنقدية واللغوية توجيه الانتباه لما تستلزمه كلمات اللغة من استدعاءات وايحاءات))(٤) للاستضاءة به في إدراك الأبعاد الإيحائية للنصوص .

السياق ودلالته الإيحائية

يعد السياق ظاهرة لغوية دلالية تختص بتركيب النص وبيان معانيه ، فمعاني التركيب لا تفهم بمجرد فهم معاني المفردات المكونة له بل بكيفية ترابط تلك التراكيب والمعاني وفقا لعلاقات بنائية تشكل هيكلية النص وبنائه .

فقيمة النص تظهر بما تحدثه إشاراته من تواصل بين المرسل والمتلقي فللكلمة اثرًا في الإيحاء بالمعنى يتأتى من حسن الاختيار وجودة الانتقاء للكلمات المؤثرة في نظمها وجرس أصواتها ،بما يبعث الانفعال في نفس المتلقي إذا طابق المقال مقتضى الحال والمقام .

فسياق النص قد يكون له من القوة التي تستطيع تفريغ الكلمة من الشحنات والأهداب التي أحاطت بها خارجه ليمنحها حياة جديدة فكأنّها ((مولود جديد ، مستمدة ايحاءاتها مما يحيط بها من الكلمات ، ومتأثرة بالبيئة الجديدة التي وضعت فيها))(٥) .

ولو حاولنا تحديد السياق لتبين لنا بأنّه مجرى الكلام وهو إمّا أن يكون قرينة لفظية متقدمة أو متأخرة أو مزدوجة ـ أي متقدمة ومتأخرة ـ أو قرينة حالية (٦)، وقد استقر مصطلح السياق في الدراسات اللغوية الحديثة باشتماله له على السياق اللغوي والسياق الحالي .

أمّا دلالة السياق الايحائية فيمكن القول بأنّها : تلك الدلالة المستنطقة من معرفة كل ما يحيط باللفظ أو التركيب أو النص من ألفاظ سابقة أو لاحقة وقد يشمل النص كلّه ، وملابسات وأوضاع غير لفظية ، وأوضاع المخاطِب والمخاطَب وطبيعة وغرض الخطاب والمناسبة التي اقتضته وزمان ومكان الخطاب أو النص .

وترتبط دلالة السياق بنظرية عدت من أفضل المناهج لدراسة المعنى ، التي أثرت الفكر اللغوي الحديث ؛ ذلك بسبب ((ما تميّزت به من عناية بالعناصر اللغوية والاجتماعية))(٧) ، تلك هي نظرية السياق أو نظرية فيرث : (The Contextual Theory meaning) .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن / الراغب الأصفهاني ٥٤٨

(٢) ينظر : الجرس والإيقاع في تعبير القرآن (بحث) ٣٣٥ .

(٣) بنية اللغة الشعرية / ٢٠١ .

(٤) وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء مفهوم الدلالة المركزية (دراسة حول المعنى وظلال المعنى)/ محمد محمد يونس علي ١٦٦ .

(٥) المصدر نفسه ١٧٦ .

(٦) ينظر: الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي / د. كاصد ياسر الزيدي (مستل) مجلة آداب الرافدين / جامعة الموصل ع ١٩٩٥ ص ١١٤ .

(٧) دراسة المعنى عند الأصوليين / د.طاهر سليمان حمودة ٢١٣ .

وكان فيرث قد أسس نظرية في السياق استناداً إلى العالم البولندي الانثربولوجي (مالينوفسكي) الذي نبّه إلى أنّ وظيفة اللغة ليست كونها وسيلة من وسائل التعبير وتوصيل الأفكار والانفعالات ، بل أنّ ثمة وظائف أخرى للغة كونها نوعاً من السلوك (١) ، فاللغة عنده ((صيغة من الحركة ، وليس كأداة للانعكاس))(٢).

واللغة أداة المعنى ، والمعنى عند فيرث ((كلّ مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية ، بالإضافة إلى (سياق الحال) غير اللغوي ، ويشمل الجانب اللغوي الوظيفة الصوتية ثم الصرفية (المورفولوجية) ، والنحوية (التركيبية) والمعجمية ، ويشمل سياق الحال عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم والمخاطب ، والظروف والملابسة والبيئة))(٣).

وإذا كانت اللغة والمعنى وفق هذه النظرية أساس أي خطاب نصي ، فمحاولة اكتشاف ايحاءات النص تستلزم تضافر جانبي النص التشكيلي والمعنوي أو الدلالي ، وهذا الأخير هو المتحكم في تشكيل كل مستوياته الأخرى لتكون مسخرة لخدمته وغاية له (٤) .

إنّ المعنى كان الهدف والغاية في السياق القرآني فهو السبيل لفهم دلالات النصوص القرآنية ، ولأجل هذه الغاية لم يغفل النص القرآني العناية بالظواهر الأسلوبية ذات الأثر في إظهار المعنى وإبرازه ، فاختار منها ما يناسب المقام والسياق الدال على المعنى المراد من الآية ، وراعى سياق الموقف في التعبير القرآني ، ففيما يخص الجانب الجمالي والايقاعي ـ مدار البحث ـ نجد أنّ القرآن الكريم يلفت النظر إلى أهمية الايحاء الصوتي الذي يجود به الصوت بجرسه وجمال ايقاعه بما يتسق مع سياق الآية والجو العام لها، فيختار الأصوات ذات الإيقاع الشديد للسياق المماثل والأصوات ذات الايقاع الهادئ والعطوف لما يماثله.

ويبدو ذلك جلياً في قوله تعالى : ﴿ ***أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا*** ﴾ [مريم ٨٣] ، فنجد أن ايحاء النص هنا يدل على الشدّة ، لذا فإنّ صوت الهمزة في لفظة (أزّا) ناسب السياق كونا أشد الأصوات اللغوية في العربية ، ووصفها علماء الصوت الغربيون بأنّها (Plosive) أي انفجاري (٥) ، على حين كان السياق في قوله تعالى : ﴿***وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً*** ﴾ [مريم / ٢٥] يوحي باللين والحنان لطفاً وتحننا على مريم بنت عمران حين أتاها الطلق وضاقت ذرعاً ، فكان (الهاء) في لفظة (هزّي) موائماً لايحاءات النص ودلالة العطف والرقة بحالها (٦) ، إذ وصف (الهاء) بكونه من الأصوات الرخوة (fvicative)(٧) ، فكان السياق القرآني في كلتا الحالتين مناسباً بأصواته وايقاعاته لايحاءات النص .

وقد يكون ايقاع اللفظة متسقاً مع إيحاء النص حتى لتشعر بأنّ سياق التركيب النصي يستدعيها دون سواها مما يماثلها من الألفاظ ، ولعلّ ذلك يبدو جلياً في قوله تعالى : ﴿ ***فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ*** ﴾ [الذاريات / ٢٩] حين أخبر عن زوجة إبراهيم عليه السلام حين بشّرت بالولد فلطت وجهها عجباً واستغرابا لذلك ، فعبر عن ذلك كلّه لفظة (صكّت) إذ دلّ ايحاء اللفظة على الشدّة والقوة في الضرب مصورة اللطمة الشديدة ، فجمعت أصوات الكلمة بين الاطباق والشدّة ، إذ إنّ من صفات الصاد الاطباق والتفخيم ، أمّا الكاف والتاء فصوتان شديدان وزاد من شدّة الكاف تضعيفها (٨) .

يتبين لنا مما تقدم أنّ السياق القرآني هو الموجه للتركيب وعلاقات الألفاظ فيما بينها ، وأنّ النص كائن حي في حالة سكون يحيا وينبض بالايحاء وفقاً للسياق المحيط به ليولد دلالات وأشكال جديدة .

المظاهر الإيقاعية في السياق القرآني

امتازت لغة القرآن الكريم بإيقاعيتها وموسيقاها ، فمثلت صورة للتناسق الفني فيه ، ومرآة عاكسة لتصوير معانيه ، فإيقاعاته لا تنبع من وزن شعري أو تفعيلات كالشعر العربي وإنّما تنبع من مكونات اللغة نفسها ، بائتلاف اصواتها وتساوق الفاظها وتناسقها وقابليتها التناغمية على أداء المعنى ودلالتها عليه .

وتعود هذه المزية التي تنفرد بها المفردة القرآنية إلى ثلاث صفات ميزتها عن سواها هي : ((جمال وقعها في السمع ، واتساقها الكامل مع المعنى ، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى))(٩) .

ولا نغلو القول إن ((الجمال الصوتي ، والتناسق الفني ، والإيقاع الموسيقي هو أول شيء أحسته الأذن العربية))(١) حين نزل القرآن الكريم آخذاً الألباب بجمال عباراته وروعة إيقاعاته ونظمه .

---

(١) ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين ٢١٣ .

(٢) علم الدلالة / أحمد مختار عمر ٧١ .

(٣) دراسة المعنى عند الأصوليين ٢١٤ .

(٤) ينظر : الإشارة الجمالية في المثل القرآني (دراسة) / د.عشتار داود محمد ٨٠ .

(٥) ينظر : الأصوات اللغوية / إبراهيم أنيس ٢٥ .

(٦) ينظر : الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن / د.كاصد ياسر الزيدي (بحث) مجلة العرب ، دار اليمامة السعودية مج ٤٠ ج٥ و ٦ ص٣٢٨ .

(٧) ينظر : الأصوات اللغوية ٢٦ .

(٨) ينظر : الايحاء الصوتي في تعبير القرآن (بحث) ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

(٩) التعبير الفني في القرآن / بكر شيخ أمين ١٧٩ .

فالعرب لم يعهدوا من منثور كلامهم سواء أكان مرسلاً أم مسجوعاً مثيله ((خُيّل لهم أنّ القرآن شعر لأنّهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذّة ، وأخذتهم من لذّة هذا الإيقاع والترجيع هزّة ، لم يعرفوا شيئاً قريباً منها إلا في الشعر))(٢) ، فموسيقى القرآن ((تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السّمع أن يملّها والطبع أن يمجها...))(٣) .

إنّ هذه السمة التي يتمتع بها النص القرآني تشير إلى مسألة جوهرية غاية في الأهمية ألا وهي مدى مراعاة النص القرآني للمتلقي وسمعه الذي يكون الأداة الأولى من أدوات فهم النص واستيعابه طاقات النص الدلالية الظاهرة والباطنة .

---

(١) المصدر نفسه ١٨٤ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن / الزرقاني ٢ / ٢٢٣ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

وسنحاول في هذا المجال الحديث عن مظهرين بارزين شغلا حيزاً كبيراً من الجانب الإيقاعي في السياق القرآني تمثلا في :

١ـ الفاصلة القرآنية . ٢ـ التكرار .

الفاصلة القرآنية

ينفرد النص القرآني بخصائص فنية أكسبته صفة التفرد في مكونه النسيجي، فهو خطاب ذو ميزة جمالية ((طالما وقف العقل الإنساني إزاءها عاجزاً، نظراً لما يتمتع به من بعد مزدوج عبر توظيفه الجمالي في خدمة التواصلي ، ليتمازجا معا في بودقة واحدة ، لم يكن لأي خطاب أدبي أو تواصلي أن يجاريه فيه))(١) .

ولعلّ من أبرز ظواهره الجمالية ظاهرة الفاصلة القرآنية ، التي تعد من الظواهر الأسلوبية البارزة التي أضفت عليه لمسة جمالية فريدة اشبه باللحن الموسيقي القادر على الإيحاء والتأثير الفني والجمالي، وطريقة متميزة من طرق التعبير.

فالفاصلة ((تلك النهاية التي تذيل الآيات القرآنية))(٢) وموقعها في الآيات يشبه موقع القافية في بيت الشعر ، فكما أنّ للقافية موقعاً متميزاً لها أيضاً مكانة متميزة كونها جزءاً أصيلاً لا غنى عنه في الآيات القرآنية (٣) ، فتعد بإيقاعاتها مركز الثقل فيها ، لتكون مكوناً ينساب مع نظم السورة وسياقها فلا تنفصم جزئياته عن المكون التركيبي للآية والسياق العام للسورة ككل بما تؤديه من دلالة تتناسب ومعاني السورة ومقاصدها ، لذا عرفت الفاصلة بأنّها ((حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن افهام المعاني))(٤)

وهذا يعني أنّ الفاصلة القرآنية تمتلك وجهين لعملة واحدة ، إذ إنّها ترد وهي ((تحمل شحنتين في آن واحد : شحنة من الوقع الموسيقي وشحنة من المعنى المتمم للآية))(٥) ، لذا كانت عناية النص القرآني بالفواصل ملحوظة وواضحة ، على أنّه لا يُعنى بها على حساب المعنى أو السياق ، بل ((يختار الفاصلة مُراعى فيها المعنى والسياق والجرس ومُراعى فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى))(٦) فضلاً عن عموم السورة .

فثمة علاقة بين الفاصلة والأبنية الدلالية للآيات ، إذ إنّ ((تكرارها الصوتي واللفظي يزيد من إيحائها وتوكيدها مما يدعم الدلالة بشحن تعبيرية ذات أثر بالغ في نفس المتلقي))(٧) .

فالجمال الصوتي والموسيقي للفاصلة ينشأ عن التناغم اللفظي والتناسق بين الحروف والمقاطع للفاصلة الواحدة حتى لتشعر كأنّ هندسة خفية بين أصوات الحروف وأجراسها وبين المعاني والدلالات التي يوحيها النص القرآني ؛ ذلك لأنّ لهذه الفواصل قدرات فنية قادرة على بث نغمات نفسية ومعنوية وإيقاعاً يمنح الإنسان طمأنينة باعثة على شعور نفسي بالارتياح .

فالايقاعية القرآنية ((فاعلية جمالية ، من شأنها تحديد البنية الشكلية للسورة، من خلال مستواها الخارجي المجسد في الفواصل ، فهو ليس مجرد شكل يجاري السورة في جملها ، بل هو تنظيم متوال لعناصر متغيرة كيفاً في خط واحد ، بصرف النظر عن اختلافها الصوتي))(٨) .

وإيقاعات الفواصل تتغاير وتتموج ((طولاً وتوسطاً وقُصراً وتتصاعد درجاتها النغمية في تباين يكسر من ثبات الإيقاع ورتابته))(٩) ، وذلك يبعث على شحذ أذهان المتلقين وينأى بهم بعيداً عن الملل والسأم؛ ذلك لأنّ لأنّ ((الكلام إذا استمر على جرس واحد وإيقاع واحد ، لم يسلم من التكلّف وإثارة الملل في النفوس))(١٠) كما أنه في الوقت نفسه باعث على الالتفات الى دقة التناسب الصوتي للنص القرآني .

وتنوع الفواصل وتغايرها يكون تبعاً لسياق الآيات ونظم السورة فتأتي الألفاظ في السياق القرآني بما يوائم فواصل الآيات وينسجم معها حتى وإن كانت اللفظة غريبة على الأسماع كلفظة (ضيزى) الواردة في قوله تعالى : ﴿ ***أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى*تِلۡكَ إِذاً قِسۡمَةٌ ضِيزَى*** ﴾ [النجم ٢١ ـ ٢٢] ، إلا أن المتأمل لجرس اللفظة يجده ملائماً كل الملائمة لسياق السورة التي تنتمي فواصلها بالألف المقصورة ، ولو جيء بلفظة أخرى تناظرها المعنى كظالمة أو جائرة لما وفت حقها من أداء المعنى (١١) ، فجرس الضاد المستعلي الفخم ، وايحاء المدين الياء والألف صورا المتهكم المستغرب حين يميل يديه ورأسه تعبيراً عن تلك القسمة غير العادلة (١٢) .

---

(١) الإشارة الجمالية في المثل القرآني (دراسة) ٩ .

(٢) التعبير الفني في القرآن الكريم ٢٠١ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤) النكت في اعجاز القرآن / الرماني ٨٩ ، اعجاز القرآن / الباقلاني ٢٧٠

(٥) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم / ٢٠١ .

(٦) التعبير القرآني / د.فاضل السامرائي ٢١١

(٧) العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي ٧٤ .

(٨) مستويات السرد الاعجازي في القصة القرآنية ١٤٠ .

(٩) العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي ٧٠ .

(١٠) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن ٣٥٣ .

(١١) ينظر : التصوير الفني في القرآن الكريم (دراسة تحليلية) ١٧٣ .

(١٢) ينظر : الجرس والايقاع في تعبير القرآن ٣٤٦ .

ومن الفواصل ما يكون مناسباً لصورة السياق اللفظي للآية فيعدل به عن الصورة القياسية بحذف صوت من المقطع الأخير مراعاة للتناسب الإيقاعي وهو ما سماه الزركشي (إيقاع المناسبة) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ***والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر *والليل إذا يسر*** ﴾ [الفجر ١ ـ ٤] فحذفت ياء العلة من آخر الفعل المضارع المعتل (يسر) مراعاة للتناسق الموسيقي بينها وبين فواصل السورة الأخرى (١) .

إذن للفاصلة وظيفة بنائية فضلاً عن وظيفتها الإيقاعية ، فهي تقوي الدلالة وتحسن المعنى وتثري النص القرآني بدلالات أخرى تنبعث من الكلمة وايحاءاتها.

التكرار

تمتلك الألفاظ طاقات ايحائية وظلالاً تضفي عليها هالة من الألوان الدلالية، وليس المقصود هنا اللفظ المنفرد بمعزل عن سياق التركيب بل تلك الألفاظ التي تتسبك مع غيرها داخل سياق نصي ما ، ((فالألفاظ تلقي ظلالاً حول النص ، تنسجم معه وتزيد من أحاسيس المتلقي وانفعالاته))(٢) ، ذلك أنّ ((لذة النص تتحقق بأكبر قدر ممكن عن طريق الغور في أغوار الأبعاد الجمالية التي عمقتها الدلالات الهامشية المحيطة به))(٣).

فثمة ألفاظ تتميز بوقعها الصوتي وجرسها الموسيقي المعبر الذي يمد النص بإيحاءات ذات قوة تعبيرية عن المعنى (٤) ، وتكتسب من السياق جواً خاصاً وشحنة من المعنى منبعها تكرار صوت أو حرف وقد يكون سحر الإيحاء نابعاً من تكرار الكلمة واللفظة أو التركيب .

فالتكرار إذن تواتر للأصوات والألفاظ والتراكيب والبنى والأساليب داخل النص ، وتكرار لفظ بعينه يمنح النص فائدتين إحداهما: معنوية ودلالية تعمق المعنى الذي حمله اللفظ المكرر ، ويظهر أثرها في السياق أو العكس حين يؤثر السياق فيها ، والأخرى : صوتية إذ يمنح التكرار بتردد أصوات معينة على خلق بنية قادرة على تصوير المعنى وتمثيله .

ويعد التكرار منبهاً أسلوبياً قادراً على ((منح النص قابلية الانتاج الإيقاعي والجمالي وبالتالي جذب المتلقي لموسيقى النص))(٥) .

ويزيد التكرار المعنى قوة وتوكيداً وشدة ؛ ذلك لأنّ زيادة المبنى تفضي إلى زيادة المعنى إذا كان التكرار في أصوات وحروف اللفظة ، أمّا إذا كان التكرار في الكلمة أو التركيب فإنّه ذو وظيفة تعبيرية وفكرية ، إذ إنّ إيقاعاته ترتبط بالمعنى والمحتوى كونه ((بمختلف أنواعه يحدث نوعاً خاصاً من الإيقاع تستلزمه العبارة مما يمدها قوة في الجرس والايحاء ، فالتكرار يمثل جمالية للنص ، تعمل على جذب انتباه المتلقي))(٦) .

.

وبما أن التكرار تناوب في الألفاظ أو الأصوات واعادتها في سياق نصي ما ، لذا يكون التوازن الايقاعي والنغمي من أهم ميزاته وفوائده التي بدت ظاهرة للعيان في النصوص القرآنية (٧) ، بل أنّ النص القرآني يستوجب وجوده أحياناً بوصفه من مكملات مضمونه العام (٨) ، فهو إذن مقصود لغايات بلاغية .

وتتنوع صور التكرار في أسلوب النص القرآني فتارة يكون تكراراً بالصوت أو المقطع وأخرى يكون بالكلمة وأحياناً يكون بالتركيب ، فمن تكرار الصوت وجرسه ما ورد في قوله تعالى : ﴿ ***وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ*** ﴾ [البقرة / ٩٦] ، فايحاءات جرس (الزاي) وأزيزه وتكراره توحي بصورة الزحزحة (٩) ، وقد ترسم المقاطع وايقاعاتها صورة تناسب ايحاء النص فيحدث ترتيبها أثراً كبيراً في خلق نوع من الموسيقى الداخلية التي تناسب المعنى وتصوره كما في قوله تعالى : ﴿ ***فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ*** ﴾ [الشعراء ٩٤ ـ ٩٥] إذ تكرر المقطع (كب) دلالة على تكرار الفعل فصور حال الكفار وهم يلقون في النار وصور جرس الكاف والباء تصويرًا ناطقًا لصوت الحركة التي تتم بها (١٠) .

ويكون تكرار الكلمة أحياناً مما يستوجبه سياق الآية وإيقاعها الداخلي ليناسب مقام وايحاءات النص ، ولعل في تكرار الراء في لفظة (صرصرًا) الواردة في قوله تعالى : ﴿***فأرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في أيام نحسات***﴾ [فصلت/١٦] ما يناسب سياق العذاب والعقوبة إذ دل تكرار الراء على ما تتسبب به الريح الباردة من

---

(١) ينظر : الجرس والايقاع في تعبير القرآن ٣٥ .

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم ٧١ .

(٣) وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء مفهوم الدلالة المركزية ١٦٦ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه ١٧١ .

(٥) مستويات السرد الوصفي في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) ٩١ .

(٦)مستويات السرد الوصفي في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) ٩١ ـ ٩٢ .

(٧) ينظر : المصدر نفسه ٩٣ .

(٨) ينظر : مستويات السرد الاعجازي في القصة القرآنية ١٥٢ .

(٩) ينظر : العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي ٤٧ .

(١٠) ينظر : التصوير الفني في القرآن / سيد قطب ٧٣ .

أذى نفسي وجسدي (١) ، فكان التكرار وظيفة معنوية تعبيرية ودلت إيقاعاته على ما ناسب السياق من هول وشدة في العذاب .

أمّا تكرار التركيب فقد يكون له دلالات بلاغية غاية في الأهمية يومئ بها سياق النص في السورة كاملة كما في سورة الرحمن ، إذ تكررت فيها آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) احدى وثلاثين مرة فأضفت عليها هالة من الجمال الايقاعي المعجز (٢) ، وأحدث بجرسها الموسيقي ايقاعاً ناسب تقرير الانسان للنعم وتساوقا مع جو السورة الفياض بالرحمة والانعام (٣) .

الخاتمة

تقوم الدراسة العلمية للغة على وصف الاصوات وتأثيرها في سياق النص ، بمعنى آخر دراسة وظيفة الاصوات في البنية اللغوية ، لذا عكف البحث على محاولة بيان ذلك من خلال دراسة جانب الايقاع الصوتي سواء أكان في جرس الحرف أو مظاهر الايقاع الاخرى ، وقد تبينت بعد هذه الدراسة جملة نتائج يمكن اجمالها بالآتي :

١- إن هندسة التركيب القرآني متكاملة وتسعى في جانب الايقاع الصوتي منها الى الايحاء بالمعنى من خلال التناسق الايقاعي بين اصوات الالفاظ فيما بينها موحية بموسيقية متناغمة بالدلالات الخفية للمعاني الكامنة وراء استار النص .

٢- سبقت اسلوبية النص القرآني في مجال الدراسات الصوتية الكثير من الدراسات اللغوية الحديثة التي نبهت الى ضرورة مراعاة المخاطب أو المتلقي في عملية التوصيل اللغوي ، إذ ركز اسلوب القرآن على الحلقة الاولى في سلسلة توصيل المدلول والمعنى وهو الجهاز السمعي للمتلقي .

٣- للايقاع الصوتي حركة داخلية يعبر عنها اجراس الاصوات في اشارة الى القوة التعبيرية لبنية النص القرآني ، إذ ينقل لنا جرس صوت معين للفظة ما داخل سياق النص دلالة لاتدرك الا لمن أوتي حسًا مرهفًا .

٤- ثمة وشيجة لا تخلو من القوة بين اصوات الحروف واجراسها ومدلول اللفظة المؤلفة منها ، إذ يجسد الصوت شكل المعنى ، ليصبح شفافا يدل على ما يحمله من دلالات ايحائية تتلاءم وصفة الصوت التي تتوائم مع السياق القرآني من جهة والمقام الذي وردت فيه الآيات، حتى ليظن أن بينهما محاكاة تبدو صامتة لمن لا يلمح تلك الوشيجة.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإشارة الجمالية في المثل القرآني (دراسة) / د. عشتار داود محمد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ، ٢٠٠٥م .
- الأصوات اللغوية / د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ـ ٢٠٠٧م .
- اعجاز القرآن / أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) / تح : أحمد صقر ، دار المعارف ـ مصر ، ط٤ ، د . ت .
- بنية اللغة الشعرية / جان كوهن ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر / الدار البيضاء – المغرب ، ط ١ / ١٩٨٦ م .
- البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية واسلوبية للنص القرآني) / د. تمام حسان ، عالم الكتب ـ القاهرة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣ م
- التصوير الفني في القرآن / سيد قطب ، دار المعارف ـ مصر د.ت .
- التصوير الفني في القرآن الكريم (دراسة تحليلية) د. جبير صالح حمادي ، مؤسسة المختار ـ القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .
- التعبير الفني في القرآن / د. بكري شيخ أمين ، دار الشروق ـ القاهرة ، ط١ / ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .
- التعبير القرآني / د. فاضل السامرائي ، جامعة بغداد ـ بيت الحكمة ، ١٩٨م .
- دراسة المعنى عند الأصوليين / د. طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية ـ مصر ، د.ت .
- سر صناعة الاعراب / أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ، تح : د.حسن هنداوي ، دار القلم ـ دمشق ، ط١ / ١٩٨٥م .
- الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم / محمد فريد عبد الله ، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨م .

---

(١) ينظر : البيان في روائع القرآن / د. تمام حسان ٣٥٥ .

(٢) ينظر : مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية ١٤٩ .

(٣) ينظر : الجرس والايقاع في تعبير القرآن ٣٥٦ .

ـ علم الدلالة / د. أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة ـ الكويت ، ط١ ، ١٩٨٢م .

ـ لسان العرب / جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ابن منظور) (ت٧١١هـ) ، دار صادر ـ بيروت، ط١ / ٢٠٠٠م .

ـ مستويات السرد الاعجازي في القصة القرآنية (دراسة) / شارف مزاري ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق / ٢٠٠١م .

ـ مفردات ألفاظ القرآن / الراغب الأصفهاني (ت بعد ٤٢٠هـ) ، تح : نجيب الماجدي ، المكتبة العصرية ـ بيروت ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م .

ـ مناهج البحث في اللغة / تمام حسان ، دار الثقافة ـ الدار البيضاء / ١٩٧٩م .

ـ مناهل العرفان في علوم القرآن / محمد عبد العظيم الزرقاني (ت٤٣٩هـ) تح : مكتب البحوث والدراسات ـ دار الفكر ـ بيروت ، ط١ / ١٩٩٦م .

ـ النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن / أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) ، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ـ مصر ، د.ت .

ـ وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء مفهوم الدلالة المركزية (دراسة حول المعنى وظلال المعنى) / محمد محمد يونس علي ، منشورات جامعة الفاتح ـ ليبيا ، ١٩٩٣م .

الرسائل الجامعية

ـ العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي (دراسة أسلوبية) / بثينة خضر محمد سيد أحمد (أطروحة دكتوراه) ـ كلية الآداب ـ جامعة البصرة ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

ـ مستويات السرد الوصفي في القرآن الكريم / طلال خليفة سلمان (أطروحة دكتوراه) ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد / ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م .

البحوث

ـ الايحاء الصوتي في تعبير القرآن / د. كاصد ياسر الزيدي ، مستل مجلة العرب ، دار اليمامة / السعودية، مج٤٠ / ج٥ و٦ ، ١٤٢٥هـ .

ـ الجرس والإيقاع في تعبير القرآن / د. كاصد ياسر الزيدي ، مستل ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ـ جامعة الموصل ، ع٩ / ١٩٧٨م .

- الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي / د. كاصد ياسر الزيدي ، مستل ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب – جامعة الموصل ، ١٩٩٥.

The Phonological and Suggestive Rhythm in the Context of the Quranic Text

Jinan M. Mehdi

Arabic Dept. – The College of Education for Women- Baghdad University

Abstract

The perpetuity of the Quranic discourse required being suitable for all ages. Accordingly, the method of the Glorious Quran a pre request for the conscious investigation and realization in order to detect the core of the texts, as the Quranic discourse is considered a general address for the humanity as a whole. For this reason, the progress of the concerned studies neceiated that it should cope with the current development in the age requirements and its cultural changes within ages.

The texts of the Glorious Quran lightened the human reason as being the Creator's miracle for it is characterized by certain merits that makes it different from

poetry and prose. It is a unique texture in its rhetoric and composition. So, the modern studies in reading the Quranic text, there is specific spectacle, but there must be an analytical reading for its texts and investigating its components to reach to the variety in its meanings and significations of its Quranic words.

The language of the discourse or the architecture of the text and its geometry depend on its textual construction composed of a group of different, topics and styles. The latter has suggestive significations preparing the shades of meanings while it is in fact hidden and becomes apparent by the context and its situation.

There are certain utterances that draw the picture of the text not by its decadness but by its shades and special suggestions that cannot be felt only by the expert.

For this reasons, the present study came as an attempt to detect and show the aesthetics of the Quranic text, its miraculous geometry and its expressive and performing power representing the rhythmic and phonological side. The latter is quite apparent in the Quranic structure of every sura. Beside, it is a study that investigates the internal movement of the rhythm and suggestion of the utterances themselves.